ابوعمار داخل المقاطعة المحاصرة
ذكريات ليست كلها شخصية

احمد قريع (ابو علاء) *

يصعب علي كثيراً، ويشق على النفس اكثر، اختيار الاستهلال المناسب لفتح بعض الصفحات الغنية، واستعادة قسط من الذكريات العزيزة، عن صاحب المكانة الاهم في حياتنا السياسية المعاصرة، والاكثر حضوراً على طول مسيرتنا الكفاحية الطويلة، عن الزعيم الوطني الكبير، والاخ القائد الشهيد ياسر عرفات (أبو عمار).

وتزداد صعوبة ذلك لدى امثالنا، نحن "ربع ابو عمار" أخوته ورفاق دربه، الذين كنا قد تعودنا على لقائه على نحو شبه يومي، نعانقه ونسأله ونستمع اليه، نطرق بابه كلما احتجنا الى مشورته، ورغبنا في الوقوف على وجهة نظره أو في نقل وجهة نظرنا إليه، في كل ما يخص امراً جوهرياً من أمورنا الوطنية، علماً أن أوقات الأخ ابو عمار جميعها كانت مكرسة للقضية، وللعمل الوطني ولشؤون شعبنا الفلسطيني ومؤسساته ، ولذلك كانت الاجتماعات القيادية تقريباً شبه يومية، فمن اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها إلى اجتماعات السلطة الوطنية ومؤسساتها إلى اجتماعات القيادة الفلسطينية التي كانت تجمع كل الفصائل الوطنية، إلى اجتماعات حركة فتح ومؤسساتها، إلى الاجتماعات الدورية مع الاتحادات والنقابات والوفود الشعبية وغيرها، ولذلك فقد ظلت جميع المؤسسات تعمل، وتؤكد على مشاركة جميع القوى والفصائل والاتحادات في بحث مستقبل القضايا الوطنية الاساسية.

---

* عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كان يراودني شعور مبهم، أن ياسر عرفات، بحضوره الكثيف في الذاكرة، لم يغب عنا كل هذا الغياب الذي يدخل هذا العام سنته العاشرة، ولم ينقطع عنا كل هذا الانقطاع الذي لا يصدّقه القلب وان اكدته الحقيقة الثابتة. بل إنني أكاد أن ألمس حضور روحه تحلق في سماء هذه القاعة.

لم لا، وهو لا يزال على عهده القديم، حارساً للحلم الفلسطيني المديد حتى في غيابه، رباناً للسفينة التي لم تبلغ ميناء الوصول بعد، الجبل الذي لا تهزه الريح، النموذج الوطني الذي تشد له الابصار في وقت الشدائد التي لم تبارحنا الى اليوم، النداء الذي يستنهض فينا العزائم، ويدعونا الى التمسك بالثوابت.

وأحسب أننا بقدر ما نفتقد أبو عمار في هذه الآونة، فإننا نفتقد في حقيقة الامر شجاعته وتفانيه، ورؤيته الحاذقة، ومضاء روحه التي لم تنكسر أمام كل الضغوطات وخاصة في تلك اللحظة العصيبة من ايام الحصار الجائر في المقاطعة، حين قال تحت ضوء الشموع، في غمرة لحظة شخصية ووطنية فارقة: يريدونني اسيراً او طريداً او قتيلاً، وانا اقول لهم شهيداً شهيداً شهيداً.. فكانت مقولته التاريخية هذه دليلاًعلى رباطة جأشه، وحُسن القراءة الكاشفة لمعطيات تلك المرحلة الفلسطينية الصعبة.

تعلمون انه صدرت عشرات الكتب عن الراحل الكبير بلغات مختلفة، دوّن فيها البعض ذكرياتهم الشخصية معه، وحاول البعض الآخر اعادة قراءة تجربته الكفاحية المديدة، فيما قام باحثون ومؤرخون وكتّاب سير (بعضهم من غير الفلسطينيين ومن غير الاعراب ايضاً) بسرد حكاية شخصيته الاستثنائية، في اطار حكاية شعب مناضل حر، كان فيها ابو عمار قائداً ملهماً لشعبه، هذا الشعب الذي خرج معه مبدداً كل محاولات التهميش على المسرح السياسي للشرق الاوسط، الى صدارة الخشبة، فصار الفلسطينيون معه رقماً صعباً لا يمكن تجاهله او القفز عنه.

ولا تتسع هذه المداخلة، او غيرها من الاطروحات المحدودة في الزمان والمكان، مثل وقت هذه الندوة، لاسترجاع الذكريات عن القائد الشهيد، وسرد ما تراكم في التجربة الذاتية معه، الامر الذي لا يتيح لواحد مثلي، وقد عاصرته وعملت معه لاكثر من اربعين سنة، سوى المرور بسرعة على بعض الوقائع المتعلقة بفترة الحصار في المقاطعة، وذلك نزولاً عند رغبة منظمي هذه الندوة.

والحق ودون مراء، أن أيام الحصار الطويلة، ولياليه السوداء، كانت ثقيلة علينا جميعاً وعلى القائد الذي لم يخذل شعبه في واحدة من أقسى لحظات عمره، تلك اللحظة التي كانت مرة وثقيلة وأشد وطأة علينا نحن رفاق دربه، وعلى شعبنا الذي أحبه وتعلق به، ولعل من المفارقة الفارقة أن أبو عمار بدا لنا في كثير من الأحيان وفي مرحلة إستهدافه شخصياً في الحصار الجائر، وكأنه كان أكثر

حرية منا، أكثر شجاعة وصفاء ذهن، ونفاذ بصيرة، من كل المحيطين به.

واستميحكم العذر، ونحن ندخل الى لب الموضوع، أن لا استرجع وإياكم الا الذكريات غير الشخصية عن الايام الطويلة من تلك الفترة العصيبة من حياة الزعيم الفلسطيني الخالد، حيث لا يتسع المقام، ولا الظرف الذي كان قائماً آنذاك، إلا لاستعراض بعض الجوانب من تلك الوقائع المتعلقة بسجل الواقع السياسي الفلسطيني القائم في حينه.

كنت عندما أعادت اسرائيل احتلال الضفة الغربية كلها اوائل العام ٢٠٠٢، رئيساً للمجلس التشريعي الفلسطيني، الذي كان لي شرف قيادته منذ تأسيسه عام ١٩٩٦. وبالتالي فقد قمت بصفتي هذه عقب حصار الرئيس ابو عمار بالمبادرة لعقد جلسة طارئة للمجلس في مقر الرئاسة لدعم موقف الأخ الرئيس في مواجهة الحصار. ودأب المجلس برئيسه ورؤساء لجانه على مواصلة الحضور في المقاطعة، بهدف تأكيد التمسك بالرئيس المنتخب والدفاع عنه في مواجهة كل الأخطار، بما في ذلك خطر المس بحياته في المقام الأول، وخطر إبعاده عن مقره، بل وعن فلسطين، في المقام الثاني.

لقد تعرض الوضع الفلسطيني آنذاك لسلسلة لا حصر لها من الضغوطات والتهديدات الإسرائيلية والأميركية،كما تعرضنا في القيادة أيضاً إلى محاولات ابتزاز متواصلة، للتأثير على موقفنا المساند للرئيس المهدد تارة بالقتل وطوراً بالإبعاد، خاصة بعد أن زعم الرئيس الاميركي جورج بوش الإبن في ذلك الوقت، أن الشعب الفلسطيني يستحق قيادة أفضل من قيادة عرفات، الأمر الذي قرأناه كضوء اميركي أخضر يمنح الإسرائيليين رخصة للتخلص من الرئيس أبو عمار، وهو الأمر الذي كان محل رغبة علنية وتخطيط من جانب حكومة إسرائيل بقيادة شارون.

على أي حال، فقد صمدنا جميعاً قوى وفصائل وجماهير وقيادات في وجه كل تلك الضغوط الهائلة، ونجحنا في حماية الرئيس ضد محاولات الإغتيال والإبعاد معاً. إلا أن تلك الضغوط التي لم تنقطع، نجحت في حملنا، سواء في القيادة الفلسطينية ، أو في المجلس التشريعي على ادخال تعديل على النظام السياسي الفلسطيني، يقضي بايجاد منصب لرئيس الوزراء، يشارك الرئيس ويقاسمه في حمل أعباء السلطة التنفيذية، أو قل لاقتطاع جزء من صلاحيات الرئيس وإضعاف دوره المركزي في الحياة السياسية الفلسطينية.

ومع أن مثل هذا التطور في النظام السياسي كان حاجة فلسطينية، إلا أن الضغوط الخارجية لعبت دوراً كبيراً في تسريع عملية التطوير هذه. حيث قام بهذه الضغوطات كل من مبعوث الامم المتحدة تيري لارسن، وممثل الاتحاد الاوروبي ميغيل موراتينوس، ومبعوث الاتحاد الاوروبي خافير سولانا، وغيرهم من وزراء الخارجية الأوروبيين، الذين اقاموا اقامة شبه دائمة بيننا، إلى أن تحقق ما رغبت

في تحقيقه الولايات المتحدة الاميركية.

لقد كانت هذه الواقعة وغيرها من الوقائع المشابهة، جزءاً لا يتجزأ من تاريخ مرحلة الحصار التي استمرت دون هوادة.اذ رغم التحفظات التي كان يبديها الرئيس ابو عمار على مثل هذا التعديل الذي يخاطبه ويرى أنه ينال من صلاحياته بشكل مباشر، فقد آثر التكيف مع الواقع والقبول بمقتضيات تلك اللحظة السياسية المفخخة، دون أن يتوقف عن تحذير كل من يعنيهم الأمر، من مغبة الاستعجال في اجراء مثل هذا التدبير الذي لا يأخذ بعين الاعتبار تعقيدات وخصوصيات الحالة الفلسطينية.

وبالفعل، وبعد أن تم اقرار التعديل المذكور، وتولي الأخ أبو مازن منصب رئيس الوزراء، برزت بعد وقت قصير مصاعب توزيع المسؤوليات بين الرئاسة ورئاسة مجلس الوزراء، وكان اللجوء المتكرر للمجلس التشريعي في حينه لحسم بعض تلك الخلافات، يثير لدي كرئيس للمجلس، ولأعضاء المجلس التشريعي نفسه، شعوراً عميقاً بالقلق والخشية من أن يلحق هذا النهج المرتجل والمستعجل أشد الضرر بالسلطة التنفيذية، رئاسة سلطة ورئاسة وزراء.

لذلك فقد اتخذت من داخل المجلس التشريعي خطاً قائماً على التكيف مع الضرورات الملحة، والعمل بمرونة لتفادي مظاهر الانقسام المبكر والانكشاف الشديد امام الضغوطات الخارجية. فكان نهجنا أن نجمع ولا نفرّق، أن نثبت أصالتنا الوطنية، واستقرار مؤسساتنا التشريعية، وأن نرتقي بدورنا الى المستوى الذي يتطلبه الموقف، وأن نواصل الإسهام في تلطيف الأجواء، وايجاد الحلول الوسط، التي تحفظ لمقام الرئيس مكانته الرفيعة، ولمجلس الوزراء دوره، ولمؤسسات السلطة الوطنية حيويتها.

غير أنه بعد مرور نحو مئة يوم على تشكيل تلك الحكومة، وحدوث بعض الخلافات غير الصامتة بينها وبين رئيس السلطة الوطنية، قدمت حكومة الأخ أبو مازن استقالتها من داخل جلسة عاصفة للمجلس التشريعي، خصوصاً وأن هناك عريضة نيابية كانت تهدد بسحب الثقة من الحكومة، التي قبلها الرئيس ابو عمار دون مناقشة، وبعد تدخلات عديدة، كلفني الرئيس بتشكيل الحكومة الجديدة رغماً عني، فقدمت استقالتي من رئاسة المجلس التشريعي ومثلت فيما بعد أمام المجلس ذاته في أواخر تشرين الأول لنيل الثقة بالتشكيل الوزاري الجديد.

ويقتضي القول أن استقالة حكومة الأخ أبو مازن كانت بسبب وصولها إلى طريق مسدود، بعد أن عجز طرفا الخلاف الذي لم يعد مخفياً، اي الرئيس ورئيس الوزراء، عن احتواء مظاهر ذلك الخلاف الذي اخذ يبرز الى السطح، واصبح محل نقاش داخلي فلسطيني عام. إلا أن الأخ أبو مازن

آثر أن يشير بوضوح أن أسباب إستقالته المكتوبة، تعود الى عوامل ناجمة عن الممارسات الإسرائيلية العدوانية، حيث شددت سلطات الاحتلال حالات الحصار والقمع والاجتياحات، وأوغلت في الاعتقال والاغتيال، ومضت بعيداً في هدم المنازل والمصادرات والاستيطان، الأمر الذي أدى الى انسداد آفاق عملية السلام، وانقضاء الوعود الغربية التي كانت من أسباب إحداث منصب رئيس وزراء والتعديلات التشريعية لتوزيع الصلاحيات.

كما يقتضي القول أيضاً، أن تكليفي بتشكيل حكومة جديدة لم يكن سهلاً وميسراً في ظل واقع فلسطيني ملبد بالغيوم، احتدمت فيه الخلافات وتباينت الرؤى والتقديرات، وساد خلاله الفلتان والاضطراب، في وقت ظل فيه الحصار على حاله، الأمر الذي دفعني إلى تشكيل حكومة طوارئ استمرت لمدة شهر واحد، عملاً بأحكام القانون الأساسي، من نهاية أيلول إلى نهاية تشرين الاول/ أكتوبر عام ٢٠٠٣، وبعدها كلفت من الأخ الرئيس أبو عمار بتشكيل الحكومة الفلسطينية الجديدة معززة بموافقة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

شاءت الأقدار أن أكون، في زمن حصار القائد الزمر، رئيس الحكومة الفلسطينية، الأمر الذي القى على كاهلي مسؤولية مضاعفة، وأوجب علي ايضاً رفع درجة التواصل الحثيث معه على نحو اكثر مما كان عليه الحال من قبل، ومشاورته في امور لم تكن تحتاج الى مراجعته في اوقات سابقة، واخذ رأيه في اي مسألة او تدبير او قرار من قرارات السلطة التنفيذية.

لم تكن كثافة التواصل هذه، من اجل رفع الروح المعنوية لقائد المسيرة، وهو في واقع الحال من كان يذكي في محيطه روح الثبات، ويوقد في نفوسنا جمرات الصمود والصبر والمقاومة، بل كان ذلك من اجل الدفاع عن شرعيته، وتكريس زعامته ومرجعيته، واستمرار مركزيته في حياتنا السياسية، بل كذلك من أجل التمسك بقيادته ورمزيته، من أجل كل ما كنا قد اتفقنا عليه من مواصلة الدرب وأداء المسؤوليات الوطنية الجسيمة.

لقد كان شغلنا الشاغل في تلك الفترة العصيبة من زمن حصار المقاطعة، بل حصار شعبنا، عندما كانت الجرافات الاسرائيلية تنهش بأنيابها الحديدية جدران المقر الرئاسي تحت ضوء عدسات مراسلي شبكات التلفزيون العربية والعالمية، اقول كان شغلنا الشاغل هو تأمين حياة الاخ الرئيس بكل السبل الممكنة، بما في ذلك تكوين حائط صد بشري من حوله، وذلك من خلال تكثيف حضور الزائرين والمسؤولين والاعلاميين وغيرهم في مقره الذي ظل محور الحياة السياسية الفلسطينية.

وفيما كانت النفوس تضطرم غضباً في البيوت الفلسطينية، وفي شوارع المدن والمخيمات، كنا نعمل على الجبهة الدبلوماسية بلا كلل او ملل، نتصل مع العواصم، نهاتف المسؤولين في الخارج، نتحادث

مع كل من له تأثير على القرار الاسرائيلي الجائر، للحيلولة دون حدوث مكروه يمس حياة ابو عمار، ويمنع وقوع اضطراب لا يمكن معه التنبؤ بالمستقبل، او السيطرة على التداعيات، حتى لا اقول الانهيار الكامل للسلطة الوطنية، التي يقع في قلب القلب منها، قائد الثورة، رئيس المنظمة ، ورئيس السلطة الوطنية المنتخب، مرجعيتها وعنوانها.

بفضل كل تلك الجهود الدبلوماسية المكثفة، وما تخللها من اتصالات محمومة جرت في شتى الاتجاهات، تمكنا من كبح الاندفاعة الاسرائيلية الحمقاء في ربع الساعة الاخير، على قاعدة قوامها الحفاظ على حياة الرئيس ابو عمار، حيث نجحنا في تقليل حجم الخطر الذي كان يحيق به الى ادنى حد ممكن، بل وفي جعل مصير رئيس م.ت.ف رئيس دولة فلسطين ورئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المهدد بالقتل في وضح النهار، قضية دولية تتصدر مختلف اهتمامات العواصم العربية والاجنبية. فقد جعلنا المقاطعة المكان الوحيد للاجتماعات الفلسطينية الدورية لكافة الأطر والمؤسسات، والمكان الوحيد للاجتماع باي ضيف او زائر لنا.

ورغم هذا النجاح النسبي، فقد كان ابو عمار، وكنا معه ايضاً، نشعر بخيبة امل عميقة وصامتة، ازاء عدم إبداء أشقاء الشعب الفلسطيني وأصدقائه، ما يكفي من الإهتمام والتضامن مع زعيم هذا الشعب المناضل. ولعل اشد مظاهر عدم الإهتمام هذه قد تمثلت في قلة عدد الوفود العربية الزائرة للمقاطعة، وفي تضاؤل الاتصالات الرئاسية من جانب الزعماء العرب مع أخ لهم كانت تطبق الدبابات الاسرائيلية حول مقره المحاصر.

وقد كانت اشد مشاعر المرارة تلك قد تجلت بصورة قوية، اثناء انعقاد مؤتمر القمة العربية في بيروت اوائل العام ٢٠٠٢، حين تواطأت بعض العواصم العربية، على منع مشاركة الرئيس أبو عمار في أعمال تلك القمة، وحجب الكلمة التي كانت مقررة له، والتي كان من المقرر بثها عبر الفيديو كونفرنس في بداية أعمال المؤتمر، مما دفع بالوفد الفلسطيني الرسمي الذي كان برئاسة الأخ فاروق القدومي (أبو لطف) رئيس الدائرة السياسية في م.ت.ف إلى التهديد بالإنسحاب من القمة إذا لم تبث كلمة رئيس دولة فلسطين، الأمر الذي أمكن معه بث تلك الكلمة في اليوم التالي، أي خارج زمن الجلسة الإفتتاحية باضوائها الإعلامية الساطعة.

لم يعوض مشاعر الخذلان التي اجتاحت نفوسنا في تلك المرحلة، ولم يقلل من حدة المرارة التي عقدت حلق القائد المحاصر، سوى ذلك التضامن الهائل، الذي ابداه الشعب الفلسطيني، داخل الوطن وخارجه، من خلال المظاهرات والمسيرات العارمة، وغيرها من الفعاليات الجماهيرية التي عبرت عن إستيائها ورفضها لهذا التجاهل الذي مارسته القمة العربية لوضع الرئيس عرفات

المحاصر دفاعاً عن فلسطين وعن الكرامة العربية ، وعدم بث كلمته في الجلسة الافتتاحية كما جرت عليه العادة. هذه الهبة الجماهيرية التي ردت لقائد الثورة كل الاعتبارات المعنوية، واعطته مزيداً من الشرعية، وطوبته مجدداً كأب وقائد لهذه الثورة، التي كثيراً ما كانت تخرج من الحصارات المتكررة، أصلب عوداً مما كانت عليه من قبل.

على إي حال، فقد تجاوزنا تلك اللحظات الحرجة من زمن الحصار الذي امتد فيما بعد، بفضل ما اظهرته القوى الفلسطينية جميعاً من اتحاد حول زعامة أبو عمار، ومن تمسك بقيادته الشرعية. وقد ساعدتنا في عبور تلك المحنة حقاً وسائل الإعلام المرئية، خصوصاً الفضائيات العربية، التي لعبت دوراً هائلاً في إذكاء روح التضامن والتفاعل مع الأخ الرئيس، الذي أحسن بصموده وفطنته استثمار الممكنات المتاحة في ثورة الاتصالات الحديثة.

صحيح أن الأخ أبو عمار ظل تحت الحصار، ممنوعاً من التنقل والسفر على النحو الذي اعتاد عليه دعماً لقضيته، الا أن مقره كان مفتوحاً أمام جميع زواره، من دبلوماسيين وصحافيين، من رفاق درب ومن مساعدين ومتضامنين دوليين، حرصوا جميعاً على عدم الإنقطاع عن مجلسه، والوقوف بجانبه، الأمر الذي حول ذلك المقر المحاصر إلى خلية عمل مركزية، تصدر منها التكليفات والتوجيهات، وتقدم الملفات والمعلومات من جانب المسؤولين الفلسطينيين جميعاً.

ورغم ذلك كله، لم تغب عن أبصارنا حقيقة أن الأخ الرئيس كان لا يزال محاصراً بالفعل، وإن كانت روحه طليقة، وأن المخطط الاسرائيلي للتخلص منه ظل قائماً ، للنيل من حياته، بل انه يمكن القول أن مؤامرة اغتيال الزعيم التاريخي، على هذا النحو او ذاك، كانت ماضية من وراء غلالة رقيقة تفضح ما كانت تخبئه الذئاب الجريحة، التي ظلت تتربص بالقائد الفلسطيني الكبير، تنتظر اللحظة المواتية للتسلل الى عرينه خلسة، بعد أن كانت قد طاردته بالطائرات الحربية علناً في أوقات سابقة.

واجد لزاماً عليّ القول بصراحة يقتضيها واجب المسؤولية، ان حيثيات حصار الرئيس ابو عمار الطويلة، لا تزال في ذمة هذه المرحلة السياسية التي لم تنقض بعد، وبالتالي فهي ليست جزءاً من تاريخ مضى وانقضى، ان لم نقل ان تفاصيلها لا تزال قائمة وممتدة الى اجل لا نعرف بعد متى يأزف اوانه، كي نتحدث بصراحة في حينه عن الحقائق والدقائق والوثائق، التي لا تزال مكتومة، لا سيما وان قضية اغتيال الزعيم الكبير، اب الوطنية الفلسطينية، لا تزال متفاعلة.

وقبل أن نطوي هذه الصفحة المؤلمة من حياة ابو عمار، وحياتنا السياسية الفلسطينية، ينبغي المرور على الفترة الأخيرة من زمن حصاره في المقاطعة، حين ألم به عارض صحي مبهم، عجز فريق الأطباء المختصين العرب عن سبر غوره، وأوصوا بضرورة نقله الى الخارج بأقصى سرعة ممكنة تداركاً لما لا

تحمد عقباه اذا ما وقعت الواقعة، ومما تجدر الاشارة اليه أن عدداً من الدول العربية والاجنبية قد أبدت رغبة وإستعداداً لاستقبال الأخ ابو عمار للعلاج فيها، ولعل أبرز من قدم دعوة كريمة لاستقبال الاخ الرئيس وعلاجه كان الملك عبد الله بن عبد العزيز الذي كان ولياً للعهد في ذلك الوقت، وقد هاتفني للاطمئنان عن صحة الرئيس، وتقدم بعرض قال بالحرف الواحد "يسعدنا في المملكة العربية السعودية ان نستضيف، ونتولى علاج الأخ أبو عمار، ولدينا كافة المتطلبات والإمكانيات اللازمة" من المستشفيات والأطباء والتجهيزات الحديثة والمتطورة لهذه المهمة، كما أن لدينا طائرة مجهزة بجميع الأجهزة الطبية والبشرية اللازمة لنقله إلى المملكة، إلا أن الأخ الرئيس وعائلته وبعض الاخوة المستشارين كانوا قد قرروا قبول الدعوة الفرنسية المقدمة من الرئيس شيراك شخصياً لاستضافة الأخ أبوعمار وعلاجه في فرنسا .

وقد قمت حينها بصفتي رئيساً للحكومة الفلسطينية بسلسلة محمومة من الإتصالات الهاتفية مع كل من يعنيهم الأمر من الزعماء العرب والأجانب من أجل ترتيب مهمة سفر الاخ الرئيس وتثبيت عودته سالماً، وقد توليت شخصياً بعد التشاور مع القيادة الفلسطينية، الاتصال بالجانب الاسرائيلي، وتحديداً مع رئيس الحكومة الاسرائيلية، اريئيل شارون، من اجل مغادرة الرئيس للعلاج في فرنسا وعودته دون قيود، وقد جرى نقاش في حينه مع رئيس الوزراء الاسرائيلي حول عودة الاخ الرئيس وخاصة حين قال سندرس موضوع عودته بعد استكمال العلاج والتحقق من سلامته، مع العلم أن شارون قد عرض إستضافته للعلاج في اسرائيل، إلا أننا أعتذرنا عن ذلك شاكرين العرض، حيث تمت الترتيبات مع الرئيس شيراك والحكومة الفرنسية. لاستضافة الأخ أبو عمار في العاصمة الفرنسية باريس لاجراء الفحوصات والعلاج اللازم، وتم الاتصال كذلك مع الحكومة الأردنية لتأمين طائرة هليوكبتر لنقله من رام الله الى مطار عمان حيث كانت تنتظره طائرة فرنسية مجهزة بالأجهزة والمعدات الطبية اللازمة مع طاقم طبي فرنسي.

بعد جهد مكثف، وبتعاون من جانب جميع الأطراف، تم تأمين سائر المتطلبات اللازمة، وجرى نقل الاخ الرئيس على وجه السرعة الى باريس عن طريق عمان، حيث جرت له الفحوصات الطبية، وباشر الاطباء في علاجه بصورة ملائمة، وذلك على نحو ما هو معروف، وعلى نحو ما وقف عليه شعبنا من تفاصيل دقيقة اولاً باول في حينه.

إثر انقضاء عدة ايام على فترة العلاج في باريس، وتضارب الأخبار حول حالة الرئيس الصحية، وتناثر الأقوال والتصريحات التي كانت تزيد الاجواء الفلسطينية ذعراً وقتامة، الامر الذي حمل القيادة الفلسطينية لاتخاذ قرارها بتكليف كل من الاخ ابو مازن ، وأبوعلاء وروحي فتوح ود. نبيل شعت للسفر الى العاصمة الفرنسية للوقوف عن كثب على حقيقة الوضع الصحي للاخ الرئيس، الذي

علمنا انه قد اخذ يتعرض لحالات متقطعة من الغيبوبة والإعياء الشديد.

هناك في باريس كلفت من قبل الجميع بزيارة الرئيس في غرفة العناية الفائقة، فوجدت ما لا يسر العقل والعين والقلب، فأجهشت في البكاء، وكدت أقع على الارض لولا ان امسك بي كل من الاخ د. رمزي خوري مدير عام مكتب الرئيس والاخ يوسف عبد الله قائد حرس الرئيس .وقد تحققت حينها أن الاخ ابو عمار الذي هو تحت لطف الله وعنايته، قد أصبح في وضع خطير، ثم خرجت من المكان بسرعة عائداً لمواصلة الاستماع الى تقرير مدير المستشفى واللجنة الطبية المشرفة على علاجه.

وليس من حاجة ، كي اعيد سرد بقية فصول الحكاية المؤلمة، التي قرأها شعبنا سطراً سطراً وكلمة كلمة، والتي شكلت لمتابعتها لجنة متابعة وتحقيق متخصصة من مجلس الوزراء، ومن ثم لجنة حركية وطنية برئاسة الاخ توفيق الطيراوي لمتابعة كل ما يحيط بملابسات استشهاد الاخ الرئيس الشهيد ابوعمار. غير ان ما وددت ان اختم هذه النتف من الذكريات غير الشخصية عن ايام حصار المقاطعة، بهذا المشهد. فقد رحل ابو عمار بجسده، وظل حاضراً ملء عين الشمس، مقيماً أبد الدهر في الذاكرة الوطنية الفلسطينية، نشتاق اليه، ونستشعر مرارة غيابه كلما وقفنا على منعطف واحتجنا فيه الى سداد رأي،، الى شجاعته وحكمته وبعد نظره.

* * * * *

وأرجو أن تسمحوا لي في نهاية هذه المداخلة، أن أتحدث عن علاقتي ورؤيتي الانسانية والسياسية للشهيد الراحل، تلك العلاقة التي ارتكزت على مدى اربعين عاماً متواصلة على عمودين أساسيَين هما: الثقة والاحترام. فقد بدأت هذه العلاقة المباشرة به، منذ أن عدت متفرغاً بالكامل إلى صفوف حركة "فتح"، في أواخر الستينات، وتميزت بخاصيتين كبيرتين هما: أولاً، الاستمرارية بما تعنيه من تواصل حثيث، وثانياً، الانسجام السياسي مع هذه الشخصية القيادية المركزية، التي طبعت بطابعها الشخصي المميز سمات مرحلة مديدة من مسيرة كفاح وطني شاق، مرحلة حفلت بالتطورات والوقائع وبالإنجازات والمؤامرات والصعوبات والأحداث الكبيرة، وتواصلت عبر العديد من المحطات والمراحل والعواصم، كان فيها القائد الراحل محور الارتكاز، ورجل كل مرحلة من هذه المراحل بامتياز، والمشترك السياسي بين الممسكين بمفاصل العمل الوطني الفلسطيني كلهم، مهما تتعدد الأفكار لديهم وتتنوع عندهم الاجتهادات.

ولا أخال اثنين ممن عملوا مع الأخ الرئيس الشهيد أبو عمار عن قرب، وتواصلوا معه في السراء والضراء، يختلفان في أنه كان يتمتع بسحر شخصي، أساسه التواضع الجم، والدفء الإنساني الغامر،

والوفاء الشديد الى حد التفاني لكل رفاق دربه وأبناء المسيرة والكفاح في سياق الوفاء لشعبه العظيم، ناهيك عن الصبر على الشدائد، وقوة احتمال الصعوبات، والقدرة الفريدة على قراءة الأحداث، وسبر غور الرجال، وحسن فن الإصغاء والتعلم، إلى جانب البداهة والبراعة والتسامح والترفع والحزم والشجاعة، وما إلى ذلك، من الصفات القيادية الأُخرى التي أهلت هذا الرجل المسكون بحرية شعب فلسطين منذ مطلع شبابه للإمساك بزمام قيادة شعبه على مدى نحو أربعة عقود، من دون أدنى منازع، باقتدار وجسارة عز نظيرهما في الزمن الفلسطيني المحتشد بالقيادات والتباينات والكمائن والأعداء والحصارات.

وبالإضافة إلى هذه الصفات القيادية كلها، كان الأخ أبو عمار يتمتع بفطرة فريدة يشترك فيها القادة التاريخيون الكبار جميعهم، وأعني بها فطرة الإلهام التي تخص أولئك الكبار وحدهم بين المشتغلين بالعمل الوطني العام. ومع أن من الصعب إدراك مفاتيح خاصية الإلهام هذه، والوقوف على منابعها الغائرة عميقاً في النفس البشرية، إلاّ إن تجلياتها سهلة الإدراك، ومُخرجاتها قابلة للوصف والقياس. ولعل أوضح مثال لذلك في حالة الراحل الكبير تلك القدرة، المشهودة له باعتراف المحيطين به جميعاً، على اتخاذ القرار الصائب في لحظات الشدة، وتقرير الاتجاه الصحيح لدى وقوفنا على مفترق طرق، وبلورة الموقف الملائم والأخذ به في أوقات الأزمة، وقيادة التوجه العام والدفع به إلى الأمام كلما اختلطت علينا الرؤى وتزاحمت أمامنا الخيارات الصعبة.

لم يكن هذا الحضور الطاغي كله لشخصية ياسر عرفات مرده بنية جسدية ضخمة، أو موهبة خطابية محلقة، كما أنه لم يكن نابعاً من شخصية متجبرة، متكلفة بمظهرها، عنيدة في آرائها، باطشة مع خصومها، حادة في علاقاتها مع الغير، غامضة في تجليات غضبها وانشراحها، بل إن ياسر عرفات، الذي تعارفنا على مناداته بلقب الختيار وهو في ريعان شبابه، كان على العكس من تلك الصفات التي أنف منها تماماً، إذ كان شديد التواضع، مجاملاً خجولاً، زاهداً في ملبسه ومأكله ومجلسه وسبل عيشه اليومي، يفطر مع الفدائيين في قواعدهم، ويسكب الطعام بيده في صحون ضيوفه من سياسيين وصحافيين ومرافقين، ويسهر إلى ساعات الفجر الأولى مع زائريه من القيادات والكوادر من دون تكلف في حوار، أو تصنع في كلام، أو استئثار برأي.

كان ذلك كله هو سحر ياسر عرفات الخاص، ومنبع شخصيته القيادية الفذة، وموئل الولاء له، ومصدر الإلتفاف حوله. فهو الذي لم يقطع الشعرة الأخيرة مع أي من خصومه، ولم ينسف جسر اتصال حتى مع أعدائه، ولم يفقد صبره في أحلك ساعات المحنة، ولم يتخل عن تفاؤله مهما تضيق عليه الدائرة. وكان لفرط تفاؤله بحتمية اجتياز هذا المخاض أو ذاك، وعبور هذه الأزمة أو تلك، يثير فينا الدهشة المختلطة بشيء من الابتسام الحييّ، وخصوصاً حين كان يقول: "يا جبل ما يهزك

ريح"، تعبيراً عن الإرادة والإصرار ورفع المعنويات والثقة، فكان كأنه يبصر ما لا نبصر، ويرى ببصيرته ما استعصت رؤيته علينا في نهاية النفق الطويل.

ولا يتسع المقام لي في هذه العجالة أن أعرض تاريخاً شخصياً طويلاً من العلاقة الإنسانية النضالية الشخصية الغنية مع زعيم لم يشق له غبار: قائد على رأس حركة التحرر الوطني الفلسطيني، ورئيس لم يُجارِه أحد لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية وحركة "فتح" والسلطة الوطنية، والقائد العام لقوات الثورة، وبطل معاركها الذي لم يتخلف عن المشاركة الشخصية في كل معاركها العسكرية والسياسية وغيرها، صانع التحول العظيم في مجرى الكفاح الذي عبرنا معه من دنيا الشتات إلى رحاب الوطن، وأقمنا معه أول سلطة على أول أرض للشعب الفلسطيني، وصمدنا وإياه في المعارك والحصارات والشدائد كافة، وبقي طوال ذلك كله القائد والأب، الفارس والفدائي، رجل المهمات الكبيرة والتفصيلات الدقيقة، لا تقعده المحن وما أكثرها، ولم يفتّ في عضده الخذلان والتنكر، ولم تضعف من ثقته برجاله الأقاويل والأراجيف الكثيرة.

فقد كنت، على مدى الأعوام الطويلة الماضية، واحداً من أبناء الحركة التي أقامها ياسر عرفات مع نخبة صغيرة من أقرانه، ثم نمت واتسعت وتجذرت عميقاً في الصفوف الفلسطينية، وغدت قائدة الكفاح الوطني وبوصلته السياسية. ودائماً كنت أرى نفسي، وبحكم علاقتي الخاصة به، وفي أي موقع كنت، واحداً من صانعي القرار الفتحاوي، ثم عضواً في الحلقة المحيطة بالرئيس، أي كنت خلال هذه المدة الطويلة واحداً ممن كانوا على اتصال غير مباشر حيناً، وعلى تواصل مباشر في أغلب الأوقات، بالقائد الذي تجمعت بين يديه مقدرات صنع القرار الوطني الفلسطيني، بكل تفصيلاته اليومية التي لا تعد ولا تحصى، وإن كانت هذه تستحق وقفة مطولة وعرضاً شفيفاً ليس له متسع الآن.

والحق، أن العام الأخير من عملي مع الأخ أبو عمار، أي العام الذي أود أن أسلط الضوء عليه، هو أكثر فترات هذه التجربة مدعاة للمراجعة والمكاشفة، ليس فقط من منطلق أنه يمثل الصفحة الأخيرة من سجل علاقتي الشخصية والنضالية بالأخ الرئيس القائد، بل أيضاً لما انطوى عليه من عناصر إشكالية مركّبة مع رئيس محاصر ومهدد بالاغتيال والإبعاد والموت البطيء، فقد تجاورت لدي اثناء عام الحصار هذا مشاعر التقدير والاحترام والحرص والولاء والوفاء من جهة، وبواعث القلق والخشية وجسامة المسؤولية وتضارب الرؤى واختلاف الاجتهادات من جهة أُخرى، وتنوعت بين ضفتيّ مجرى هذه العلاقة وتنقلت مراراً من حالة الانسجام التام، إلى وضعية الرغبة في الانصراف وإعادة الأمانة كاملة غير منقوصة إلى أصحابها، أي إلقائها مجدداً بين يدي الرئيس.

وربما لأنني واحد ممن عملوا عن قرب شديد مع القائد أبو عمار، ولا سيما في الأعوام الاخيرة، فقد كنت من القادرين على قراءته وفهمه، وبالتالي على تحاشي أي نزاع محتمل معه، حتى لا أقول مسايرته وتغليب وجهة نظره، الأمر الذي أطال عمر الحكومة التي عهد إليّ بتشكيلها في هذه الظروف الصعبة مدة طالت أكثر مما كنت أرغب فيه.

ومع أنني قدمت له استقالتي أكثر من مرة ، بعضها علني وبعضها لم يعلن، إلاّ إن محبتي الشخصية له، وتقديري العميق له ولمسيرته الكفاحية العظيمة، وحرصي الشديد إزاء ما قد يلي قبول استقالتي من تداعيات عليه وهو المحاصر في المقاطعة في رام الله، في آخر بقعة أرض ظلت ذات سيادة فلسطينية في الضفة الغربية، جعلني استجيب لرفضه وإصراره على رفض الاستقالة، والعودة مجدداً إلى العمل معه في نطاق كل المشتركات المتاحة، وهي مشتركات كانت على أي حال كثيرة وواسعة.

غير أن إدراكي العميق لخصوصية تلك الإشكالية القيادية التي تجسدها شخصية الأخ الرئيس، التي امتزجت فيها روحية الأب الكبير بكاريزما الزعيم التاريخي القدير، وتماهت فيها سمات القائد الوطني الكبير مع صفات رجل دولة لديه طاقة على المتابعة والمناورة والمرونة والصلابة والوقوف على أدق التفصيلات، جعلتني أفكر ملياً واشاطره التقدير في جدوى التعديل الذي أجريناه على القانون الأساسي، وخصوصاً في تلك المرحلة الصعبة جداً والرئيس في حصار شديد داخل المقاطعة محاط بالدبابات الإسرائيلية وتحت الضغط الدولي باشكاله كافة.

وباستعادة ذلك المشهد المروع داخل المقاطعة وحولها في رام الله، بدا ذلك التعديل الذي جرى إدخاله على النظام السياسي الفلسطيني في حينه ،أقرب ما يكون إلى خلق وضع جديد، أقحمنا فيه إقحاماً منصب رئيس حكومة في نظام سياسي بدا أنه فصّل أساساً على قياس هذا الزعيم الذي لم يكن لديه شغل شاغل سوى العمل على تدبير أمور السفينة الفلسطينية المبحرة وسط صخور ثلجية عائمة ودهاليز سياسية زلقة، وذلك على طريقته الخاصة، رجلاً لا حياة له خارج مضمار السهر على شؤون الشعب الفلسطيني ونظامه السياسي وتربية الحلم بإقامة الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

ومما أود ذكره قبل أن أستكمل هذه المداخلة، تلك المحادثة التي أجريتها معه قبل أيام قليلة من اعتكافه في مقر إقامته بالمقاطعة، أي قبل أن يأخذ المرض منه مأخذاً جعله يتوارى عن زواره، وذلك حين حدثته عن جلسة المجلس التشريعي الوشيكة، وأخبرته بأنني سأطرح فيها قراري بإعادة الأمانة والذهاب إلى البيت. وقبل أن أسمع ردة فعله بادرت إلى التأكيد له أن هناك ثلاثة مبادئ

أساسية ستبقى معي أينما ذهبت: أولها، الوفاء للأخ الرئيس أبو عمار في أي موضع كنت، وأي مسؤولية قد تناط بي مستقبلاً،ثانيها، الحرص على الاستمرار في لقائه، وفي تكثيف الحضور إلى مقره تحت كل الظروف وفي سائر الأحوال؛ أمّا ثالثها فالتزام بإنجاح أي حكومة يختارها الأخ أبو عمار، لاي رئيس حكومة يكلفه من بعدي.

وقد يختلف المؤرخون في شأن بعض جوانب سياسة ياسر عرفات وإدارته، إلاّ أن أحداً من هؤلاء لا يستطيع الإنكار أنه كان بمثابة أب للشعب الفلسطيني، وعنوانه السياسي لأكثر من أربعين عاماً، وأن الأخ الرئيس الراحل لم يكن كبيراً من كبار الشرق الأوسط فقط، بل أيضاً من كبار العالم في زمانه، قاد شعبه بفطنة وشجاعة لا تنقصها المرونة، وسط صراع دام، وفي محيط شديد التعقيدات، مليء بالكمائن والمنزلقات والموانع والتغيرات العاصفة، وأنه كان صاحب سياسة لا تقرأ بالتجزئة أو القطعة، وإنما تؤخذ جملة واحدة ولا تفهم إلاّ بقراءتها دفعة كاملة.

وكان يرحمه الله وحده القادر على المزج بين الثورية والدبلوماسية، بين الصلابة والمرونة، بين المتناقضات والتعارضات كلها، لم يقطع شعرة، ولم يغلق باباً، ولم يسقط رهاناً، وكان بحدسه الصائب يعرف قراءة الخريطة من حوله، ويتنبأ باتجاهات الريح سلفاً، فقد كان لديه ما يمكن أن نسميه بحق عبقرية عرفات، التي تجسدت في هذا الإجماع النادر عليه، حتى من جانب أولئك الذين كانوا إذا اختلفوا معه لا يختلفون عليه قائداً مؤتمناً، محط ثقة ومبعث إلهام.

لذلك نخاطب اليوم روح الرمز الخالد قائلين له: نحن اخوتك ورفاق عمرك، ابناؤك وتلاميذك، نعدك اننا سنظل على العهد الذي تعاهدنا عليه واياك، نحفظ الامانة الوطنية التي اودعتها بين ايدينا، نعلي الراية التي رفعتها في سماء فلسطيننا، نصون حلمك النبيل بسواعدنا وحبات قلوبنا، ونمضي على دربك الى الامام صابرين صبرك الأسطوري أمام الشدائد، وواثقين ثقتك بالنصر مهما طال الزمن، مطمئنين مثلك تماماً، ان شبلاً من اشبال فلسطين وزهرة من زهراتها، سوف ترفع علم فلسطين على اسوار القدس، وعلى مآذن القدس وقباب كنائسها بكل تأكيد

بسم الله الرحمن الرحيم "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيبًا " صدق الله العظيم .... سورة المعارج....الايات ٥، ٦، ٧.

السلام عليكم ورحمة الله